ورود وأشواك

متكلفتين جوه الشيلان

م الغربة والشوق والحنين

صوت الرياح يصرخ أنين

والمطرة دمع متخزن

يبكي ينوح

على قلوب العاجزين

يشكي برد الليل الحزين

هجره القمر...

حتى نجومه مدخمسين

صوت الآذان ينطق بحق الدفا

يا دنيا يا مجحفة

إمتي الصفا يغزل لنا

تلفيحات متكلفة

تكمر قلوب الحيرانين

الهواء بارد يجمد الأوردة...

يأمر كونه حاكمًا مستبدًّا في العباد، فيجعلهم يلزمون المنازل رغمًا عنهم، خلت الشوارع إلّا من بعض المارة، الذين يهرولون للعودة إلى منازلهم؛ حيث الدفء والراحة من عناء يوم طويل بارد.

أثار انتباهي شاب وفتاة يلهوان ويضحكان وتساءلت ...ألا يشعران بالبرد؟

هذا الذي يرتدي قبعة وكوفيّة من الصوف الأسود وكنزة صوفية زرقاء اللون رفع أكمامها، فكشفت عن سواعد قوية نافرة العروق، عيناه واثقتان مكحلتان، أو ظنّنت ذلك «لا أدري»... يسير إلى جوارها.

الفتاة التي ترتدي القبعة والكوفيّة الوردية.. تلامس الكوفية وجنتيها، وهي تخشى أن تجرحهما من فرط رقتهما، تتناثر بعض الشعيرات البنية من القبعة، يداعبهم الهواء؛ فتتمايل معهم القلوب، لتضفي لمسة إضافية من الرقّة على الوجه الملائكيّ.

توقّفا عن اللهو، فكان الصمت ثالثهما، على الرغم من أنّني سمعت حوارًا طويلاً بين العيون السوداء المكحّلة والعيون العسليّة الرائقة.

سارا متجاورين، ينظر كلّ منهما إلى الآخر، يتبادلان الابتسامات بين الحين والآخر، فتفتنه غمازتاها، وهو يرفع يده؛ ليبعد شعراتها الرقيقة، خشية أن تطرف عينيها، وهي تبتسم في خجل وحمرة تزيدها جمالاً وبهاءً.. وتزيده دفئًا.

فركت يديها، ونفخت فيهما زفرة فاحت بعبير عطرها، وهي تنظر له طلبًا للدفء، فنظر إليها، وأخذ يقرب يده من يدها في حذر، لم يجد ممانعة، فدثر يديها بحضن يديه الدافئ، واعتصرهما في جرأة وثقة.

خُيّل لي أنّه إذا انفصلت أيديهما لانفصلت معها أرواحهما، كلّ منهما كان معلقًا بروح الآخر، برباط أقوى من الحبل السريّ، الذي يربط الأم بالجنين، ليهبه الأمن والحياة بقدرة الله ورحمته.

كان البحر عالي جدًّا، أمواجه تلتهم بعضها في شراسة وجنون، مهددة باقتراب «النوّة»، تتلبّد السماء بالغيوم منذرة بالمطر، والكلّ يهرول... إلّا هما! كأنهما في عالم آخر، كانت النظرة كلمات، والابتسامة فراشات، والشمس أشرقت من العيون؛ التي صدقت على عهد اليدين بالتوحّد، أو تراها الأرواح، التي توحّدت هنا، العالم بأسره كان حاضرًا، حدوده جسديهما المادية اللذين، ما عادا يشعران بأي برد.

نظـرت إليهمـا طويـلاً، وتخيّلـت مـا يـدور بخلـد كلّ منهمـا.

هـي تتمنّـى لـو أنهـا ترتمـي علـى صـدره؛ طلبًـا للمزيـد مـن الـدفء والحمايـة؛ لتسـتمع إلى دقّـات قلبـه، وهـو ينـادي عليهـا، ويطـرق علـى أبـواب الـروح، يناجيهـا، يتوسـل إليهـا ألا تبتعـد، وتظـل هكـذا.. إلى آخـر العمـر.

أمـا هـو فبـات يتمنـى أن يقبّـل رأسـها ويحيطهـا بذراعيـه؛ ليحميهـا مـن كل مـا حولهـا، يخبئهـا في صـدره فتختفـي بـين ضلوعـه متخـذة منهـا مـأوى وسـكن وسـتر، فـلا يراهـا أحـد بعـد ذلـك إلّا هـو.. هـو فقـط!!

ضحكـت مـن نفسـي، هـا أنـا ذا أكتـب لهمـا قصتهمـا علـى ذوقـي الخـاص، حمـدًا لله علـى أنّـه سـتر أفـكار البشـر، وجعلهـا حكـرًا عليهـم فقـط نعمـة كبـيرة حقًّـا.

نظـرت، فوجدتهـا تنظـر في سـاعتها، وتضطـرب وتخـبره شـيئًا وهمّـت أن تـترك يديـه، فوجـدت نظـرة حـزن قاتلـة، أكاد أقسـم أن عينيـه لمعـت بالدمـوع؛ وهـو يمسـك يديهـا في قـوة؛ رافضًـا أن تتركـه، وترحل، اكتسـت قسـمات وجهـه بالجديـة وهـو يحدّثهـا، رأيـت الضعـف في عينيهـا وخيبـة الأمـل، وهـي تتعلـل، وتحدثـه حتّـى اقتنـع رغمًـا عنـه.

وترك يديها في بطء ومع آخر طرف من أطراف أصابعها، انسلّ من يده ومع أول خطوة، أخذتها لتسير مبتعدة، أسرع الخطى خلفها، ووقف أمامها، ونظر إليها نظرة، سدّدها إلى عينيها، وعدها بشيء ما، ثم اختطف كف يدها ولثمه في قبلة طويلة مفاجئة.

اضطربت الفتاة، وأحمرّ وجهها، وارتعدت فرائصها، وارتبكت وكأنها لا تدري ماذا تفعل ولكنها رمقته بنظرة حب لا تخطئها عين، حبّ حقيقي.

تركته وسارت، وهي تلتفت مع كلّ خطوة؛ لتسرق نظرة أو نظرتين إليه قبل أن تغادره.

أما هو فظلّ واقفًا لخمس دقائق كطفل يتيم، خطفت منه روحه وفصلت منه الحياة، ولأول مرة أراه يرفع يديه، يمررها على كتفيه، ويزفر في يديه بقوة، ويجري مهرولًا هو الآخر مثل بقية المارة إلى البيت؛ طلبًا للحماية من البرد.